أنتَ الصخرة !

لمَّا دُعي الى رومية العظمى سنة ١٨٧٠ احد شيوخ الاساقفة من اليسوعيين المرسلين الى الصين السيد لَنْفوبليا الفرنسوي ليحضر المجمع الفاتيكاني ودخل لاول مرَّة على السعيد الذكر بيوس التاسع ما كاد ينظر الى طالع امام الاحبار حتى خنقتهُ العبرات ولم يستطع ان يفوه بين اقدام نائب المسيح بغير هاتين الكلمتين « انت الصخرة » . فضمَّهُ بيوس بكل تأثير الى صدرهِ وباركهُ بمثل الحنوّ والتلطُّف .

وها نحن اليوم امام بيوس آخر أقامهُ الله من بين اخوته ليرعى كنيستهُ فلا يسعنا كذلك المرسل الجليل الّا ان نردّد آية الرب : انت الصخرة !

كان المسيح الصخرة (١ كور ١٠ : ٢٠) هو حجر الزاوية (افس ٢ : ٢٠) الذي يسند كل بناء الكنيسة وعليهِ تتحطَّم كلّ قوّات الجحيم . وانّما هذه الصخرة خفيَّة محجوبة عن النظر منذ ارتقائه الى السماء . لكنَّهُ عزَّ وجلَّ وعد تلاميذهُ بان يبقى معهم الى منتهى الدهر . فقياماً بوعدهِ اراد ان تظهر خواصّ تلك الصخرة العجيبة في صخرة منظورة تستمدُّ من الخفيَّة روحها وقوَّتها . حتى اذا اختبر العالم صلاحها وثباتها واقرَّ بالروح الالهي الذي يحييها ويسندها يبدلها بصخرة أُخرى ليُظهر غناهُ بتعداد الصور المختلفة نظرًا وزمناً والثابتة معنًى وروحاً .

وكان تبارك اسمهُ استأثر ببنائهِ بند كتوس ليجزل ثوابهُ عن حسن وكالتهِ . فسار على وفاتهِ خمسةَ عشر يوماً حتَّى ظهرت الصخرة المحجوبة بجمالي قوَّتها تحت صورة جديدة ندعوها بيوس الحادي عشر . وهي الدفعة المائتان والستّ والستُّون المكرَّرة على استجدادها منذ بطرس هامة الرسل

فأمام شخصك الكريم ايها الاب الاقدس نقرُّ ونعترف بانك الصخرة البطرسيَّة بكل طمأنينة وارتياح نستطيع ان نوجّه نظرنا الى كنيسة المسيح التي عليها يثبت ايماننا

فيكتسب من اساسها ثباتهُ غير المتزعزع

انت الصخرة التي لا تقوى على بنائها انواء العالم وسيول الشهوات وتيّار الاضطهادات ———

انت الصخرة ! فمن تشبَّث بك معتصماً بركنك لا خوف عليهِ من الغرق في بحر الدنيا المتلاطم بالامواج

انت الصخرة ! من لاذ بك لاذ بعمود الحقّ وقاعدتهِ (تيم ٣ : ١٥) فلا يتقلَّب مائلاً مع كل ريح تعليم خداع الناس ومكيدة الضلال (افس ٤ : ١٤)

انت الصخرة ! لست الصخرة الجامدة القاحلة بل انت تلك الصخرة الرمزيَّة (عدد ٢٠ : ١١) التي بضربة عصا موسى جرت منها المياه فارتوى منها شعب اسرائيل. واليوم تتفجر منها مياه النعمة التي تسقي العالم كلهُ وتحيي الارض بعد موانها فتأتي باثمار الخلاص للحياة الابدية

انت الصخرة التي «يفيض منها لنهارٌ من زيت» (ايوب ٢٩ : ٦) تلين بهِ الاوجاع وتتعذي الارواح وتستنير العقول. بل من هذه الصخرة يُرضع الله شعبهُ عسلاً كما قال (تث ٣٢ : ١٣). «وارضعهُ عسلاً من الصخر» وكما صرَّح بهِ داوُد قائلاً (مز ٨٠ : ١٧) : «واشبعهُ من الصخرة عسلاً»

انت الصخرة التي الى ثقوبها تلتجئ الطيور الناطقة (نشيد ٢ : ١٠) اشعيا ٢ : ١٠) لتنجو من مخالب الباشق الجهنمي وتستتر من غضب الله كلما استحقته بخطيئتها

فالى هذه الصخرة الربانية نتقاطر اليوم وعلى صلابتها نبني رجاءنا ونركز آمالنا !

رُقيتُ عرشاً شادهُ ربُّ العُلى فاجلس عليه آمناً بيُوسُ
لا تخشَ سوءاً من عداك فبأسه يوتيك عضداً ربُّك القدُّوسُ
واذا نوَوْا ضرراً بصخرتك انثنوا بتهشُّمٍ والمجتري منكوسُ

فها نحن عند اقدامك ايها الاب الجليل . على آثارك نسير . وبانوارك نستضي . ولتعاليمك نسترشد . انت الراعي فالقطيع طوع بنانك . انت الدليل فوراءك لا نتيه في بيداء الضلال . منك نسمع لأننا باصغائنا الى صوتك نسمع من المسيح ذاته (متي ١٠ : ١٢)

ويا ليتنا نرى في ايامك الخراف الضالة تعود الى حظيرتك فترعاها في المروج المخصبة مع اغنامك الامينة وتقودها الى الاخدار السماوية بعد ان يتألف منها قطيع واحد تحت نظارة راعٍ واحد . آمين اللهم آمين!